الأستاذ الدكتور محمود حسن زيني

صبح «الشبيكة» ... ينفح بطيوب الإذخر والجليل*

من صبح «الشبيكة» المضمخ بعبير النداء المزهر انطلق الفتى محمود معطرة أنفاسه بطيوب قرآن الفجر المشهود لينجز أول مواعيده الخضلة المونقة كما الإذخر في بيته والجليل مع مأدبة ربه تعالى،، يكحل العين بالرواء،، يمتع الطرف بالبهاء،، حتى إذا خفق جنانه بآي ربه، وتحركت بها الشفتان كان أجره بكل حرف عشر حسنات! وما زال الفتى محمود يتردد، صباحه والمساء، على هذه المأدبة البهية الوضيئة حتى قرت به عيون طالما سهرت تحلم بيوم (الأصرافة) المنشود الموعود،، يوم تطوف بموكب محمود (حوائر) مكة تشهد أهليها أنه قد صدق ظنهم! أو لم يغد، وقد حفظ واستظهر، في خير الناس الذين تعلموا القرآن..؟

على مأدبة القرآن تعلم الفتى أن العلم، طلبه فريضة، وبذله فريضة! من يومها نذر حياته للعلم يتتبع غيوثه،، حيث تهمي!

اختلف إلى حلقات الشيوخ في المسجد الحرام - شرفه الله - فنال عندهم شبعاً وريا!

لكنه، مع ذلك، كان، شأن المنهومين، شبعهم وريهم إلى حين،،

لأن القناعة عندهم،، وعنده - مع الفارق - ليست كنزاً! بل هي عجز!

ولكي لا يرمى بـ(العجز) حمل الفتى محمود، ذات صباح من أصباح «الشبيكة» الفينانة، باب العمرة في شغاف قلبه، وحمل البيت، مقامه والحطيم، في رموش

بقلم: د. حسن الوراكلي**
المغرب

عينه،،

ثم سار - على بركة الله - لا ينكث لأم القرى عهداً ولا يستبيح لها إلا ولا ذمة،،

حتى إذا نزل عند ضفاف بحر النيل بأرض الكنانة سارع يملأ وطابه في مجالس وأخرى يتصدرها جهابذة الشيوخ،،

ثم،،

دفع - على بركة الله - يوسع رقعة الرحلة باتجاه بلاد الفرنجة،،

حتى إذا نزل عند شواطئ بحر الشمال بأرض (إسكتلاندة) سارع يملأ الوطاب في مجالس وأخرى يتصدرها كبار الأساتيذ،،

❖❖❖

آب الفتى محمود من رحلته العلمية التي شرق فيها وغرب وفير الزاد من معارف ثمينة تلقاها وعلوم قيمة لقنها،،

ثم،،

لم يكد يلتقط أنفاسه من وعثاء السفر حتى شمر عن ساعد مده في همة، وعزم،

* ألقيت في حفل تكريم (إثنينية) الشيخ عبدالمقصود خوجة للدكتور محمود زيني، وذلك يوم الإثنين ٢٥ ربيع الأول عام ١٤٢٤هـ.

** أستاذ بكلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

ونشاط:

لخدمة العلم في البلدة التي وعى سمع التاريخ، كما لم يع من قبل، نداء السماء الداعي إلى القراءة والعلم يتردد في أحنائها..

لخدمة الدعوة في البلدة التي ضاءت طلعتها بنور آخر نداء إلهي لدعوة التوحيد، تهزم المحل واليباب بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم..

وكذلك يزيد الله الذين اهتدوا هدى..

هاهو ذا الشيخ الدكتور محمود، سيراً على سنن العلماء العاملين، يرد لداره بالشبيكة، عروس مكة المجلوة كل صباح بأشذاء الفجر وأنداء الأذان، بل لدار النبوة والمبعث المشرفة، بعض ما طوقته به من معروف..

حين نشأته على هدى وبينة..

وحين أدبته على تقوى ورضوان..

وحين علمته وألقت في روعه أن لا علم إلا بالعمل..

وحين ودعته وظلت تترقب نجمه يتلألأ في أفقها!

سأل الشيخ الدكتور محمود نفسه:

هل من مكافأة أسنى لدار المبعث من رعاية إرث النبوة فيها: كتاب الله وسنة رسوله؟

هل من مكافأة أسنى لدار المبعث من رعاية أفلاذ أكبادها يفيض عليهم مما رزقه الله من علم، ويحليهم بما تجمل به من آداب القرآن؟

وكان للشيخ محمود ما أراد..

وكانت له في ذلك مشاهد محمودة ومواقف محمودة،

أعد لكم منها ثلاثا تجزئ.. وتدل على ما سواها!

❖❖❖

أولها..

إذ يرفع، مع أتراب له ولدات، القواعد من بيت الله العرفان: جامعة أم القرى..

وإذ يرعى، تارة، علوم الدين الحنيف في كنف كلية الشريعة..

وإذ يسهر، تارة، على أمر اللسان المبين في صرح كلية اللغة العربية..

وإذ يدير، حيناً، مركز التعليم الإسلامي تحت قبة الجامعة، وحيناً، مركز بحوث اللغة العربية..

وإذ يعكف، في غير ملل ولا كلل، على إعداد سلال شذية بهية بقطاف المشيخة العلمية والأدبية بأم القرى..

كانت بغية الداني من أهل العلم.. طلابه والشيوخ!

وكانت سلوة القاصي من أهل العلم.. طلابه والشيوخ!

أيهما، اليوم، إذا ذكر الذاكرون (مجلة جامعة أم القرى) فيما تصرم من عمرها، لا يثني ويشيد؟

❖❖❖

وثانيها..

إذ يجلس لأفلاذ أم القرى ومن حولها، يعلمهم فيتخرجون به أرسالاً في إثر أرسال وقد وعوا عنه ورووا..

وإذ يشغل، ساعة من نهاره وأخرى من ليله، بتجلية عرائس وضاءة الجبين، مشرقة الطلعة، تنفح بالمسك أردانها، إذا نسبتها ألفيتها من المكارم بذروتها..

اسم إحداها (جمهرة أشعار العرب) وولي أمرها محمد بن أبي الخطاب..

واسم أخرى (غاية المقصود في شرح المقصور والمدود) وولي أمرها أبو البركات الأنباري..

واسم رابعة (شرح قصيدة بانت سعاد) ووليها ولي سابقتها..

وإذ يعكف على التأليف في الأدب الإسلامي.. فيكفي!

وإذ يكب على التصنيف في فقه المناسك.. فيشفي!

❖❖❖

وثالثها..

إذ يؤم في المحارب.. بكرة وعشيا.

يزين القرآن بصوته..

وإن أحسن الناس صوتاً الذي إذا سمعته يقرأ أحسست أنه يخشى الله عز وجل..

وإذ ينتصب، عقب صلاة الفريضة، يدعو المصلين الذين ائتموا به إلى مأدبة الله تعالى..

يغرف لهم من خيراتها..

ويحفن لهم من بركاتها..

ويقول لهم: اتبعوا مأدبة الله: القرآن، فإن من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة.

❖❖❖

أيها الحبيب.. المحمود علمه، المشهود عمله:

أتراني وفقت في تلخيص سنة.. أنت سرتها؟

لا أزعم ذلك..

كيف لي وسنتك كالنخلة التي كلما هززت منها جذعاً تساقط عليك رطباً جنياً!؟

لكن..

إذا كان - كما قالوا- أول راض سنة من يسيرها فإننا مثلك، وعلى شاكلتك راضون سنة سرتها..

كيف لا..؟

أو لم تكن كمياه المجنة صفاء!؟

كيف لا...؟

أو لم تكن كجبل الكعبة سماء!؟

كيف لا..؟

أو لم تكن كصبح «الشبيكة».. ينفح بطيوب الإذخر والجليل..؟ ■